مفهوم الطمأنينة

◄بعض الأسماء والأوصاف سهلة ولطيفة، ولكن استحصالها ليس بالسهل، فمن يا ترى يعيش الطمأنينة في هذا العالم الذي يعجّ بالخوف والاضطراب؟

قال الراغب: "الطمأنينة والاطمئنان: السكون بعد الإنزعاج، قال تعالى: (ليطمئنّ قلبي) (البقرة/ 260)، (يا أيتها النفس المطمئنّة) (الفجر/ 22)، وهي أن لا تصير أمّارة بالسّوء. وقال تعالى: (ألا بذكر ا تطمئنّ القلوب) (الرعد/ 28)، تنبيهاً أن بمعرفته تعالى والإكثار من عبادته يُكتسَبُ اطمئنان النفس..."(1).

الاطمئنان يعني الأمان، فكيف يمكن أن ننتقل بالنفس من عالم مضطرب إلى جزيرة آمنة مستقرة؟

وللحصول على الأمن، لابدّ من الإبتعاد عن مصادر الخوف والقلق، والتي يمكن أن تهاجم النفس الآمنة من كلّ صوب، لتحوّل بحرها الهادئ إلى بحر لجيّ مضطرب الأمواج، فلا يستقر لها حال ولا بال.

ومصادر الإضطراب نوعان:

الأولى: فكريّة، وهي التي تسبّب الشكّ والارتياب.

والثانية: حياتيّة تسبّب الخوف والحزن.

وعلاج الأولى، أن تكون النفس متيقنة بالحق، فتطمئن ولا تشك ولا ترتاب.

ولا يحصل ذلك إلا بذكر ا، إيماناً وتصديقاً، ذلك أنّ الإنسان يُفكّر دوماً في الأسباب والمسبّبات.. "فكلّما وصل إلى سبب يكون هو ممكناً لذاته، طلب العقل له سبباً آخر، فلم يقف العقل عنده، بل لا يزال ينتقل من كلّ شيء إلى ما هو أعلى منه، حتى ينتهي في ذلك الترقي إلى واجب الوجود لذاته – ا تعالى – مقطع الحاجات ومنتهى الضرورات.. فلمّا وقفت الحاجة دونه، وقف العقل عنده واطمأن إليه ولم ينتقل عنه إلى غيره.. فثبت أنّ الاطمئنان لا يحصل إلا بذكر واجب الوجود"(2)، وهو ا.

وهكذا فإنّ آلاف الأسئلة، بل ملايينها لا تنقطع ولا تتوقف ولا تصل إلى نتيجة إلا إذا آمن الإنسان با ولجأ إليه.. وبذلك يخرج من بين أمواج الريبة واضطرابها إلى برّ الأمان.

لنضرب مثلاً، إذا سأل سائل: ما مصدر المياه في الأنهار والمحيطات؟ أجيب بأنّه من المطر، فيقال: من أين يأتي المطر؟ قيل من السحاب، فمن أين؟ من بخار الماء، فما الذي يبخره؟ قيل حرارة الشمس، فمن أين؟ قيل من حريقها، فمن الذي جعل الشمس محرقة ولم يجعل الأرض كذلك؟ وهكذا تنهمر الأسئلة وتنهال، بلا نهاية، ما لم يأتي الجواب: (ا الذي يرسل الرياح فتثير سحاباً فيبسطه في السماء كيف يشاء...) (الرّوم/ 48).

(ا الذي خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماءً فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم وسخّر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره وسخّر لكم الأنهار * وسخّر لكم الشمس والقمر دائبين وسخّر لكم الليل والنهار) (إبراهيم/ 33-32).

(ا الذي جعل لكم الأرض قراراً والسماء بناءً...) (غافر/ 64).

(ا خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل) (الزمر/ 62).

ا... ا... ا.

ثمّ ننتقل من عالم الطبيعة إلى عالم الحياة الجارية وما فيها من حوادث سارّة وضارّة، مفرحة ومقرحة، مفاجئة وحزينة، لتأتي الأسئلة تترى وحيرى، فَمَن الذي يدبّر الوجود؟ مَن الذي يديره؟ مَن الذي ينعم على الناس ويوزّع بينهم الأرزاق؟ مَن الذي يهب لمن يشاء الذكور ويهب لمن يشاء الأناث؟ مَن الذي يهب الحياة؟ ومَن الذي يأخذها؟

والجواب: هو هو، ولا جواب غيره: (ا الذي خلقكم ثمّ يرزقكم ثمّ يميتكم ثمّ يحييكم.. هل من شركائكم مَن يفعل من ذلكم من شيء سبحانه وتعالى عمّا يشركون) (الرّوم/ 40).

(ا الذي يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر...) (الإسراء/ 30).

(وا الذي خلقكم وما تعملون) (الصافّات/ 96).

لقد قالها أحد فلاسفة الغرب: "لو لم يكن هناك إله لوجب أن نخلق إلهاً لأنّ الكون لا يستقيم له حال من غير إله".

وقال ربّ العزّة من قبل: (ولئن سألتهم مَن خلق السموات والأرض ليقولنّ ا...) (الزمر/ 38).

وهكذا يجول العقل ويصول، ولا يهدأ له بال، ولا يستقر به حال، ولن يهدأ ولن يطمئن، إلا بالإيمان

با تعالى وذكره، ولكن يبقى هناك سؤال: كيف يمكن تدعيم الإطمئنان بالإيمان؟►

.....

الهوامش:

1- مفردات القرآن للراغب الإصفهاني.

2- التفسير الكبير للفخر الرازي، في تفسيره للآية (يا أيتها النفس المطمئنّة).